۱۶۵۲۴

مجله	الرابطة العالم الاسلامی
تاریخ نشر	۱۳۸۷ ق
شماره	چهارم سال ششم
شماره مسلسل	
محل نشر	مکة
زبان	عربی
نویسنده	سعدبن یاسین
تعداد صفحات	۲۶ - ۲۹ و ۴۱ - ۵۰
موضوع سرفصلها	القضاء والقدر ۲-۱
کیفیت	
ملاحظات	

القدر

بين الجبر والاختيار

لفضيلة الشيخ سعدي ياسين

الحمد لله الذى خلق فسوى وقدر فهدى المتصف بكل كمال والمنعوت بكل جمال وجلال ، واشهد ان لا إله إلا الله الفعال لما يريد والعالم بما يفعل « وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » . يونس (٦١)

وبعد ، فانى لا أحب الخوض بالكلام في القدر لقوله صلى الله عليه وسلم اذا ذكر القدر فامسكوا ، لولا ما اضطرنى الى ذلك هذا النشء الذى هوجمت عقيدته من هذه الناحية من قبل مبشرين في صفة معلمين وقساوسة مشككين في ثوب علماء اجتماعيين باحثين وهم اناس هيئوا لهذا الغرض الداس واعدوا له ودربوا على كيف يهاجمون فيشككون وكيف يواربون ويختلون ، وهل يستطيع الناشيء الوقوف في وجوه هؤلاء وقد مرنوا على ذلك وضروا عليه .

وهل يستطيع الأعزل منازلة الشاكي(١) ومن اين للحدث أن ينازل الكهل ويقارع الفحل وهذا اعد للامر عدته واخذ له اهبته وذاك مأخوذ على غرة مباغت في غفلة ، فلا يجدون مناصا من أن يلتمسوا اطفاء اوارهم واخماد نارهم وانا من يرونه امامهم لانى انتدبت لتوجيههم فانا في البحث بالقدر على حد ما قال الاول (مكره اخاك لا بطل) فاقول وبالله استعين وعليه اتوكل .

ان مسألة القضاء والقدر ليس الاسلام واضع اساسها بل انها وجدت قبل الاسلام بآماد واحقاب وتناولها فلاسفة اليونان والرومان والهند والصين والافريق ولكنهم حاموا حولها ولم يقعوا عليها وخبطوا فيها واصطدم مقبلهم بمدبرهم فكانت مضلة افهام ومزلة اقدام ومثار اوهام والاسلام الذى هو دين واقع الفطرة البشرية لا يصطدم بواقع ولا يأمر بمستحيل ولا يبنى على وهم اتى بالحق البين الذى يقبله الطبع ويذعن له العقل ويرضى عنه المنطق الصحيح واليك ما قرره في القدر

(١) الشاكي المتسلح وضده الاعزل وهو غير المسلح

ان الله وسع كل شيء علما واحاط بكل شيء خبراً وسواء في ذلك دبيب النمل على الصفا أو سير الافلاك في مداراتها بالسماء وذلك في سائر الازمنة والامكنة ولا يغيب شيء من احداث الزمن من الازل الى الابد عن علمه ذلك انه تعالى اوجد الاشياء بعد ان لم تكن وكل جزء من هذا الكون مرتبط ببقية الاجزاء ارتباطاً وثيقا محكماً بحيث لا يصطدم بغيره ولا ينافيه بسيره)

« مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ » الملك «٢»

فلا ريب اذا — والوجود كما تراه احكاما واتقانا انه تعالى احكم هذا الكون بعلم دقيق لان هذا الاحكام العظيم والاتقان اللامتناهي لا يحكمه الا علم اجل واعظم منه كثيرا كثيرا

أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ .

ستقولون انا سألناك عن القدر فذهبت بنا الى العلم ونحن لم ننكر علم الله ولم نسترب به وانما سألناك عن القدر وحكمته وكيف نجمع بينه وبين واقعنا في حياتنا في الدنيا والآخرة .

فأقول اني لم احد عن جوابكم ولا تغافلت عن سؤالكم بل انا في جوابكم وفي طريق جوابكم وذلك أن القدر يا اولادى هو علم الله سبحانه من الازل بما يقع وسيقع في هذا الكون ، وامام اهل السنة والجماعة احمد بن حنبل رحمه الله رحمة واسعة لما قال له تلاميذه ابراهيم بن الحربى وغيره اتعبنا هؤلاء القدرية « نفاة القدر » في ملاحاتهم « جدلهم » قال : ناظروهم بالعلم قولوا لهم هل يعلم الله هذه الامور قبل وقوعها ام لا يعلمها فان قالوا : يعلم فقد اقروا بالقدر لان القدر علم الله ، وان قالوا : لا يعلم فقد نسبوا الله الى الجهل وكفروا .

فالخفض والرفع والقبض والبسط والاعطاء والمنع وما يقع في هذا الكون من حركات الاجرام واعمال الانسان من خير وشر ويأس ورجاء وفرح وترح ذلك كله استوعبه العلم الالهى احصاء وعدا

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » الانعام « ٣٨ »

« وعنده أم الكتاب » وفي هذا الكتاب خطت سطور القضاء والقدر وعرفت مصائر الامور وكتبت اعمال العباد من خير وشر وضر وشقاء وسعادة واى ضير في هذا او أى اشكال او أى اكراه او أى اجبار والكتابة هى كتابة العلم ، والعلم وكتابته لا اجبار فيهما (هل في هذا العلم وتلك الكتابة اكراه او أجبار؟)

قال بعض أهل الادب كن ايها العاقل وقورا لا تبلغ البلادة ونشيطا لا تبلغ الطيش وشجاعا لا تصل الى الهوج والنهور ومحترسا لا يجرفك الجبن وسخيا لا يدركك السرف ومقتصدا لا تبلغ البخل ويجمع هذه المعانى كلها قوله (ص) خير الامور اوساطها ودين الله الحق بين الجافى والغالي .

انقسم البشر تلقاء سلطان القدر الى ثلاث طوائف طائفتان ضالتان وهما على طرفى نقيض وطائفة بلغت الحق الصراح واستمسكت بالصراط المستقيم والكتاب المستبين ، فالطائفتان الضالتان هما القدرية وهم نفاة القدر الذين

يقولون ان الانسان لا سلطان للقدر عليه ، والثانية الجبرية الذين يقولون ان الانسان ليس له عمل ولا ارادة وانما الفاعل الله وحده فهو كالريشة في مهب الرياح تقبل بها وتدبر وكامواج البحر وقد كابروا في هذا العقول والفطر . وسنعرض لكلتى الطائفتين فنبين أنحرافهما عن جادة الصواب وتنكبها صراط الحق السوى .

وقبل الشروع في ابطال مزاعم هؤلاء لابد من توطئة يسلم بها الموافق والمخالف فنقول : الامور التي تقع في عالمنا قسمان منها مالا يدلنا فيه لا ايجادا ولا عدما قط مثل احيائنا واماتتنا والواننا ومقادير طولنا وقصرنا ومنها جريان الهواء وحركة الافلاك ونزول الماء من السماء وحدوث الفصول. بل ومنها مواهبنا كالذكاء والغباء والعقل والبله وانا اعلم اني لم اشق لنفسي السمع ولا البصر ولم اركب في نفسي يدا ولا رجلا ولا لسانا ولا اختيار لى في كونى ذكرا أو انثى وانما ذلك بيد غيرى وهو الله سبحانه وتعالى .

وهناك اعمال لي فيها كسب واختيار ولم يضطرنى اليها اضطرار ككونى احسنت أو أسأت واصلحت أو افسدت ومثل هذا الايمان والكفر والاشراك والتوحيد والعهر والطهر وفعل الطاعات وفعل المعاصي واتيان المبرات او الموبقات .

ولهذا وجدنا على بن ابى طالب رضي الله عنه لما اتى بقدرى ينكر القدر ليرده الى صوابه ويبعده عن عابه قال له : يا هذا هل الله خلقك كما تشاء ام كما يشاء . قال : كما يشاء . قال : ورزقك كما تشاء أم كما يشاء . قال : كما يشاء . قال . ويمرضك كما تشاء أم كما يشاء قال كما يشاء قال : ويشفيك كما تشاء ام كما يشاء . قال : والله كما يشاء » . قال : ويميتك كما يشاء أم كما تشاء . قال : كما يشاء . قال : ويبعثك كما يشاء ام كما تشاء . قال : كما يشاء . قال : ويدخلك الجنة او النار كما يشاء ام كما تشاء . قال : كما يشاء . قال : يا هذا وتقول مع كل هذا ليس هناك قدر . فافحم الرجل وسكت ثم عاد الى صوابه .

ولما سأله ذلك التميمي الذى حضر معه صفين فقال : اخبرني يا امير المؤمنين اكان مسيرنا الى صفين بقضاء الله وقدره ؟ فقال رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه : والله الذى لا اله إلا هو فالق الحبه وبارىء النسمة ما سرتم مسيرا ولا وطئتم موطئاً ولا رقيتم تلعة او نزلتم واديا الا بقضاء الله وقدره . فقال الاعرابى : عند الله احتسب عنائى ما احسب ان لي من الامر شيء .

فقال له علي رضي الله عنه مه عظم الله أجركم بمسيركم وانتم سائرون وفي منصرفكم وانتم راجعون غير مكرهين ولا مجبرين فقال : فكيف ساقنا الله بقضائه وقدره إذاً قال له : لعلك ظننت قضاء قاسرا وقدرا مجبرا . قال : نعم . قال : لا ، لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب والامر والنهى والوعد والوعيد ولما كانت محمدة من الله لمحسن ولا مذمة لمسيء ولما كان المحسن اولى بالمحمدة من المسيء ولا المسيء اولى بالمذمة من المحسن تلك مقالة عبدة الاوثان وجنود الشيطان وشهود الزور واهل العمى عن الصواب ، ان

الله أمر تخييرا ونهى تحذيرا وكلف يسيرا ولم يخلق السموات والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار .

فانت ترى ان هذا الطبيب الماهر عالج كل واحد من هذين المريضين بما يلزمه من علاجه فاقنع القدرى اولا بخلقه ورزقه ومرضه وشفائه وموته وبعثه مما لا يد له به ، فأقر بالقدر . وكلم المجبرى بما لا يدع له ريبا وبين له أن الجبر يتنافى مع الامر والنهي والوعد والوعيد ومع العدل الالهى أفيكون هو سبحانه اذا الفاعل للمخالفة يعاقب العبد عليها ولو فعل هذه فرعون ونمروز لا ستقبح ذلك منه فكيف به من اعدل الحاكمين وارحم الراحمين .

وتأمل قوله رضي الله عنه : ان الله أمر تخييرا ونهى تحذيراً الدال على الاختيار فيما يأتى الانسان ويذر من أعماله ، ومن اولى بتفسير الاسلام ومنه القدر من تلاميذ محمد الذين تلقوا عنه وأخذوا منه وهم عرب خلص .

وما اسد واجمل ما أجاب به اياسُ بن معاوية واصل بن عطاء رأس المعتزلة لما التقى به فقال واصل وهو ذلك المناصل : يا إياس سألتك بالله أيحب الله أن يعصى يريد بذلك نفى القدر . فقال له إياس رحمه الله ناقضاً عليه قوله : سألتك بالله يا واصل أيعصى الله رغما عنه فأسلت حتى كأنما القمه حجراً .

الدعوة الاسلامية في بريطانيا — بقية

المستشرقون أكبر حساب وعدوها أكبر خطر لمشاريعهم الهدامة . فهذا الاستاذ مانت جمبرى وات ، استاذ الدراسات الاسلامية بأدنبرة اقترح على طالب شرقى ذهب ليحضر الدكتوراة أن يختار جماعة التبليغ والدعوة موضوعاً لرسالته .

وقرأت مقالا للاستاذ المذكور في جريدة تايمس « ١٣-١-٦٨ م » بحث فيه أثار نكسة العرب في الحرب مع اليهود يقول فيه بالحرف الواحد « إلا أن اسلام هؤلاء لو بعث من جديد كان خطراً لا يسهل ازاحته على معارضيهم واني لأجد امارات هذا الخطر وان كانت قليلة المدى قد بدأت تتبلور على أفق الشرق الاسلامى .

محنة المؤمنين — بقية

ان أدركنى ذلك : قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم .. قلت فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وانت على ذلك » .

« رواه مسلم »

اللهم احفظنا من دعاة السوء والضلال وجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن ، واجعلنا من عبادك الصالحين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

آخر الليل وفي بلاد غربية عنها بمسافة معينة كألف ميل قبله بساعة ، وفي بلاد غربية عنها بتلك المسافة بعينها قبل الأولى بساعتين ، وقبل الثاني بساعة ، وعلى هذا القياس ؛ فعلمنا أن طلوعها في الغربية متأخر بنسبة واحدة ، وأما العرض فلأن السالك في الشمال كلما أوغل فيه ازداد القطب ارتفاعا عليه حتى يصير بحيث يراه قريبا من سمت رأسه ، وكذلك تظهر له الكواكب الشمالية ، وتختفي الجنوبية ،والسالك في الجنوب بالعكس اه

٢ – يقول ابن حزم – من علماء القرن الخامس بالأندلس ما ملخصه

« قد أجمع المسلمون على أن صلاة الظهر تجب بزوال الشمس فلو كانت مسطحة لكان زوال الشمس عند أهل المشرق عقب الشروق ، وعند أهل المغرب قبيل الغروب ، ولم يقل أحد من المسلمين أن صلاة الظهر تحل قبل نصف النهار ، ولا أن وقتها قبيل الغروب بل هذا خارج عن حكم دين الإسلام وإنما وقتها هو نصف النهار فكل من هو على ظهر الأرض لايصلى الظهر إلا عند انتصاف نهاره » اه

٣ – قال الفخر الرازى – بصدد تفسير قول الله « الذى جعل لكم الأرض فراشاً »

« من الناس من زعم أن الشرط في كون الأرض فراشاً ألا تكون كرة ، واستدل بهذه الآية على أن الارض ليست كرة وهذا بعيد جدا ، لان الكرة إذا عظمت جداً كانت القطعة منها كالسطح في إمكان الإستقرار عليه ، والذى يزيده تقريرا أن الجبال أوتاد الأرض ثم يمكن الاستقرار عليها فهذا أولى » اه

٤ – وكذلك قال البيضاوى في تفسير الآية الكريمة ما نصه

ومعنى جعلها فراشاً أن جعل بعض جوانبها بارزا عن الماء مع ما في طبعه من الإحاطة بها ، وصيرها متوسطة بين الصلابة واللطافة حتى صارت مهيأة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط ، وذلك لا يستدعى كونها مسطحة لأن كروية شكلها مع عظم حجمها واتساع جرمها لا تأبى الافتراش عليها » اه

١٦/٥

– ٢ –

القضاء والقدر كلمتان مبهمتان تحتاجان لايضاح والناس ينظرون اليهما بشيء من الخشية والحذر لما بثه بين ظهراني المسلمين الجبريون الذين خرجوا بسوء فهمهم عن الفطرة والطبع وقواعد الشرع وسار على منهاجهم كثير من متأخرى الصوفية وانتشر ذلك بين العامة ولا سيما النساء وتلقى عنهم ابناؤهم ذلك من افواههم والدين لا يؤخذ من العامة ولا من العجائز وانما يؤخذ من كتاب الله وما فسره من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فهمه الصحابة واوضحه ائمة الهدى وسلف الامة في القرون الثلاثة الاولى الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بانهم افضل المسلمين بقوله خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .

وجاء المبشر المغرض فدخل من هذه الثغرة التي ليست من الاسلام والتي فهمت على غير وجهها فشكك الناشيء الغر الساذج في دينه وقال له : الاسلام يحض على الكسل ويأمر بترك العمل بسبب عقيدة القضاء والقدر ، واسمع ما يقولون وينشد له هذين البيتين اللذين قالهما ذلك الصوفي المخبول :

جرى قلم القضاء بما يكون
فسيان التحرك والسكون

جنون منك ان تسعى لرزق
ويرزق في غشاوته الجنين

والاستدلال على الجبر بالرزق كالاستدلال عليه بالخلق وبالكون والجمال او الدمامة والموت والحياة ذلك ان هذه الامور مما لا كسب للانسان فيها بل هى من عمل الله تعالى وحده ، فالرزق مقسوم والعمر محدود محتوم « فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » الاعراف آية ٣٤

وان تعجب فعجب والله لهؤلاء الذيـن يعيبون علينا بزعمهم شيئا في كتابهم مثله كقول الانجيل (لا تسقط شعرة من رؤوسكم الا باذن ابيكم السماوى) ولكن انى للناشيء ان يعرف هذا ودروسه اوسع من وقته .

وعقيدة القضاء والقدر ليست علة تأخر المسلمين كما يتشدق بذلك العدو المغرض وسنذكر لك ما فيها من فوائد ومنافع للناس — ولكن تأخر المسلمين سببه اطراح المسلمين عناصر الرقى واسباب النهوض التي جاء بها الاسلام وامر بها وحض عليها ورفعت اباءنا الذين كانوا قبلها خلف امم الارض فجعلتهم امامهم .

رأى عبد الله بن الزبير على علي رضي الله عنهما درعا صدارا لا ظهر له فقال له اما تخشى ان تؤتى من خلفك . فقال اذا مكنت عدوى من ظهرى فلا ابقى الله على مهجتي وكان كثيرا ما يتمثل بهذين البيتين :

ايّ يومي من المـوت افـر
يوم لا يقـدر أو يـوم قدر
يوم لا يقـدر لا ارهبـه
ومن المقدور لا ينجى الحـذر

وقال جرير :

قل للجبـان اذا تأخر سرجه
هل انت من شرك المنيـة ناجي

وما أجمل ما قاله شبيب بن تيميم الخارجي في هذا المعنى وهو اشجع قول وأبسله :

اقول لهـا وقد طـارت شعاعا
من الابطال ويحك لـن تراعى١
فانك لـو سألت بقـاء يـوم
على الاجل الذى لك لن تطاعي
فصبرا في مجال المـوت صبرا
فما نيل الخلود بمستطـاع
وما نيـل الخلود بثـوب عز
فيطوى عن اخـى الخنع اليراع ٢
سبيل الموت غاية كل حـي
فداعيـه لاهل الارض داعـى
ومـن لا يعتبـط يسأم ويهرم
وتسلمه المنـون الى انقطـاع

وقد بث نبوليون بونبرت هذه العقيدة بين جنوده فأحرز من الانتصار ويريد هؤلاء المبشرون من تنفير ابنائنا من عقيدة القدر امرين اثنين الاول تشكيك ابنائنا في دينهم والثانى اقصاؤهم عن هذه العقيدة التي احرز آباؤنا بواسطتها ذلك النصر الذى ما زلنا نتغنى به ايام بلغ آباؤنا في فتوحهم ما بلغوه فاستولوا على جنوب اوروبة وشماليها كيلا نعيد الكرة لانهم ينظرون الينا بحذر دون ريب وان كنـ في فتوحنا مثال العدل والرحمة .

(١) قوله لها الضمير عائد الى نفسه التى يحاورها . والشعاع بالفتح التفرق وشع القوم اذا تفرقوا .

(٢) الخنع والخنوع الضراعة والخضوع واليراع واليراعة الجبان الذى لا عقل له ولا راى ولا قلب ماخوذ من اليراع وهو القصب لضعفه وفراغه

ان عقيدة القضاء والقدر تحمل الانسـان على الرضا بما يجيء به القضاء مما لا يد للانسان في اجتلابه ولا قدرة له على دفعه كموت حبيب ونزول مرض لان المؤمن يعلم ان الله حكيم فلا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة ورحيم فلا يفعل بعبده الا خيرا .

واما اذا كان المصاب يمكن تلافيه كاطفاء حريق وانقاذ غريق فالمؤمن يقوم بدفعه وهو من القدر ايضا ، وفي هذا فائدتان كبيرتان أيضا ، الاولى الرضا عن الله تعالى فيكون من اهل هذه الآية

«رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه»
البينة آية ٨

والرضا يجعل الحياة جنة وارفة الظلال والفقير الراضي فقره ابيض لا اسود ، والفائدة الثانية مران على الصبر الذى يتغلب به المرء على متاعب الزمن كما قال ابن المعتز : الحوادث المؤلمـة مكسبة لحظوظ جزيله منها تنبيه من غفلة ومنها تطهير من ذنب ومنها مرونة على مقاومة الزمن .

القضاء والقدر ليس فيهما اجبار قط

القضاء والقدر هما عبارة عن اثبات النظـام والحكمة في خلق الله تعالى يجعل كل شيء بنظام محكم ومقدار معين لا يعدوه فالمسببات تكون دائماً بقدر اسبابها قال سبحانه

«وخلق كل شيء فقدره تقديراً » الفرقان آية ٢ وقال : « وانزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الارض» المؤمنون آية ١٨ وقال « وانبتنا فيها (اى الأرض) من كل شيء موزون » الحجر آية ١٩ وقـال : « انا كل شيء خلقناه بقدر » القمـر آيـة ٤٩

وقال « من اى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره » عبس آية ١٨

فهذه الآيات مصرحة بان معنى تقدير الله سبحانه للاشياء هنا انما هو جعلها بمقدار مخصوص ونظام محدود .

وان حوادث الكون ليست فوضى ، كما ان اجزاء هذا الكون ربط بعضها ببعض ربطا محكما دقيقا لا تفاوت فيه وبحيث لا يصطدم فيه شيء بآخر ولا يتناقض جرم مع غيره فالتقدير بعلم دقيق سابق وكلما ازداد الانسان نظرا في هذا الكون وبصيرة في دراسته ازداد يقينا بان العلم الالهى شامل لكل ذرة من ذرات هذا الكون في الماضي والآتي والحاضر وشمول العلم من الكمال الالهى وعظمته .

وهو سبحانه خلق العالم كما اراد ورتب سيره كما يشاء وجعل مراتب الخلق كما اراد فهو سبحانه فعال لما يريد .

وهو سبحانه وتعالى لم يجعل الانسان مكرها على فعل شيء ولا ترك شيء واراد الله أن يكون الانسان عاقلا مكلفا ومنحه تمييزا واختيارا وعقلا مدركا جعله بها مكلفا مختارا بالتكاليف الشرعية وامره ونهاه لانه مستعد لذلك بما خيره به.

« انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما » الاحزاب ٧٢ — ٧٣

اى أن الله جعله حرا يفعل ما يختار وحريته هذه ارادها الله له ومنحها له فهي من ارادة الله فلا يأتى العبد شيئا ولا بذرة الا بعلم الله وقدره

ثم انه لا يخطر على البال خلق يفترضه العقل

الا والله سبحانه قد اوجده فأوجد من يمشي على رجلين ومن يمشي على اربع ومن له ست ارجل كالذباب والعناكب واربعا واربعين كالحريش (١) (أم اربع واربعين) واكثر من ذلك وخلق من يزحف على بطنه ومن يطير في الهواء ويسبح في الماء ومن يجمع بين الطيران والمشي ومن يجمع بين العيش بالبر والبحر ومن ليس له اعين ومن ومن ....

وجعل من خلقه المفطور على الخير فلايصدر عنه الاخير وهم الملائكة ، كما جعل من خلقه من فطر على الشر كالشياطين ، كما خلق نوعا مستعدا لتزكية نفسه حتى يكون كالملائكة ولتدنيسها حتى يكون كالشياطين وهم جنس البشر وهذا الشمول قدرته .

فلو قال قائل لم لم يخلق الانسان مفطورا على الخير كالملائكة والجواب ان لو كان مفطورا على الخير لكان ملكا ولما احتاج الى العقل والادراك ولما كان في امره ونهيه حاجة ولا في ارسال الرسل اليه ولا في انزال الكتب له حاجة وهناك لا يكون هذا الانسان المكلف المختار .

وهكذا اراد الله سبحانه ومن يستطيع أن يعترض ارادته ووجوده مستمد منه تعالى . والله جعل الحيوان الاعجم بلا نطق ولا ادراك وله بذلك وظيفة في الحياة محدودة ، ومنح الانسان العقل والادراك بقوله

« انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان »

بما اعطاه الله من حرية وادراك وارادة فهو حر الارادة والتفكير والعمل .

فمن زعم انه لا ارادة له ولا حرية فقد انسلخ من انسانيته وزعم انه من الحيوان الاعجم او النبات المقيد وكذب على ربه وانكر واقع نفسه .

والمسلم لا يحكم على شيء مقدر الا بعدوقوعه لا قبله وبهذا لا يناقض العمل القدر ولا القدر العمل ، وتأمل ما قاله ابو امامه الباهلي حينما علم ابنه عقيدة القدر اذ قال له يا بني سمعت حبيبي صلى الله عليه وسلم يقول (انك لن تنال حق حقيقة الايمان حتى تعلم ان ما اصابك لم يكن ليخطئك وما اخطأك لم يكن ليصيبك وانك ان مت على غير هذا دخلت النار » الا ترى انه قال له اصابك وأخطأك واسند ذلك للماضي ولم يقل يصيبك وبهذا يريح نفسه من الوسواس وتوقع سوء قد لا يقع ويطيع النبي (ص) الذى يقول اعملوا فكل ميسر لما خلق له .

فالمؤمن إزاء ما سمعت مكلف بالعمل فاذا عمل وظفر بما يحب حمد الله عز وجل وسر بالنتيجة والثمرة ، واذا أخفق وكانت الثمرة على غير ما يحب استكان لمشيئة الله وسلم امره اليه ولم يجزع .

ولا عار ان زالت عن الحر نعمة
ولكن عارا ان يزول التجمل

والمؤمن يعرف عجز نفسه وقدرة ربه وضعف نفسه وقوة ربه وفقر نفسه وغنى ربه فيقوى في يقينه ويرسخ في ايمانه .

ادلة القدر

كل ما يحيط بك دال على القدر ، تأمل خلقك ولونك وطولك ومرضك وصحتك وجوك وعمرك وزواجك واولادك وكونهم ذكورا او اناثا .

تشتهي لونا من الطعام فتحضره ليطهى لك فيأتي صديق ويدعوك عازما عليك فتذهب وتأكل غيره ، وتكون بيدك قطعة حلوى او فاكهة فيدخل ابنك الصغير فتعطيها له طواعية لانها لم تقدر لك وقد تضعها في فمك وهي لم تقسم لك واذا بشعرة فيها او حصاة فتلفظها ، واكثر من ذلك انك قد تمضغ اللقمة وتبتلعها فيعرض لك غثيان او غيره فتقيئها لانها لم يقدر لك تتبلغ بها وكم من خطيب عقد على زوجته ولم يبق بينه وبين البناء عليها (١) الا يوم او بعض يوم فينشب خلاف او تبدل فكر فيتفرقان لان احدهما لم يقدر للآخر . ويريد ولدا ذكرا فتأتيه انثى ثم انثى ويكون للام اولاد ذكور فتريد بنتا لتعينها فيكون الامر على خلاف مرادها . كل هذا دليل القدر ودليل ان الله فعال لما يشاء .

ويتعلم ويتدرب على وسائل الكسب ويكدح ليثرى فيخفق مع قوته وذكائه وعلمه ودريته ، ويثرى جهول احمق اهوج وهذا دليل القدر ودليل ان الله فعال لما يشاء ويرحم الله الامام الشافعي اذ قال :

ومن الدليل على القضاء وحكمه
بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق

وقال الحسن بن هاني :

الرزق والحرمان مجراهما
بما قضى الله وما قدرا
فاصبر ان الدهر نبا نبوة
فجنة الحازم ان يصبرا
كم موسر اعسر في ساعة
ومعسر في مثلها ايسرا

وفي هذا المعنى قال امير المعاني ابو تمام :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل
ويكد الفتى في عيشه وهو عالم
ولو كانت الارزاق تجرى على الحجى
اذا هلكت من جهلهن البهائم

وقد مرت بك تلك الكلمة الحكيمة التي حج بها سيدنا علي ذلك القدرى نقف عليها في صفحة ٣ . سطر ١٠

ولكن ذلك كله لا يعنى انك مجبور على عملك وسنعرض لكل شبهة يتمسك الجبرية وننكر عليها بالابطال بالدليل الذى لا يقبل النقض ان شاء الله تعالى

فانت ايها الانسان حر في ارادتك وتفكيرك وعملك ولذلك أمرت ونهيت لان في تكوينك قبول الفعل والترك واستقبال الامر والنهى ثم انك مؤاخذ بالاساءة ومكافأ على الاحسان بعدل وحكمة

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » « ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما . » النساء آية ٤٠

والله تعالى لا يؤاخذ الناس بما لم يجترحوا ولا يعذبهم بما لم يكسبوا

« ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما » . النساء آية ١٤٧

(١) يقال بنى الرجل على زوجته ولا يقال بنى بها اذ الاصل انه يضرب عليها خباء او قبة ويدخل عليها

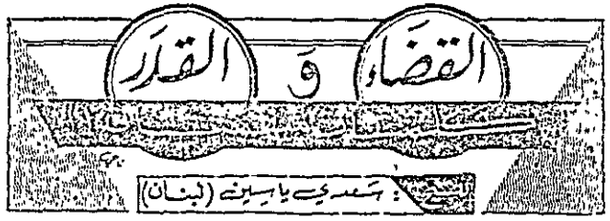

تفنيد مزاعم الجبرية وردها

الجبرية نفاة الاختياروهم الذين قالوا ان العبدمجبور على افعاله مقهور عليها ولا تاثير لهفى وجودها البتة وما اعماله الا كامواج بالنسبة للبحر وتحرك الريشة بالنسبة للرياح فالمحرك للامواج وللريشة هى الرياح وهذا ضلال بين .

والشرع والعقل والعلم والحس كلها تنفى هذا وتنادى بضلال اهله وتثبت ان الانسان يوقع اعماله باختياره وارادته ولا مجبر له عليها بدليل ان الانسان مسئول عنها ومجزى بها والاجبار والمسئولية (التبعة) لا يجتمعان ، وعلى هذا امم الارض عامة ولو لم يكن كذلك لالغيت قوانين الجزاء والجرائم ولاغلقت المحاكم .

اما في الشريعة فالنصوص متوافرة متضافرة على بطلان الجبر قال عز قائلا « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »

البقرة آية « ٢٨٦ »

وتأمل ما علمنا الله أن نقوله بعد هذا الرفع للحرج « ربنا لا تؤاخذنا أن نسينا أو اخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

البقرة آية « ٢٨٦ »

وتأمل هذا البيان منه تعالى بقوله « لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم »

البقرة « ٢٢٥ »

اى بما عزمتم عليه والمؤاخذة تقتضي تعذيبا . وقال سبحانه : « إنا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا إنا اعتدنا للكافرين سلاسل واغلالا وسعيراً .. ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافور عيناً

يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا »

الانسان آية « ٢-٦ »

بين سبحانه في صدر هذا البيان ان الكافرين انما استحقوا السلاسل والاغلال والسعير بكفرهم واستكبارهم عن قبول الحق واعراضهم عنه كما بين ان الابرار استحقوا النعيم بايمانهم وامتثالهم واخلاصهم اعمالهم لربهم بمحض اختيارهم فقال تعالى

« يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ، ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا ، انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكوراً » الانسان آية « ٧-٩ »

ثم اعلنوا أنهم آمنوا بالجزاء يوم الدين باختيارهم كما اخبر عنهم سبحانه بما حكاه عنهم بقوله « إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا » .

الانسان آية « ١٠-١١ »

وتأمل الاختيار الصريح بقوله سبحانه « وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً » .

الانسان آية « ٢٢ »

وتعالى معى يرحمك الله ننظر قوله تعالى مخاطبا الجنس البشرى

« إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم ولا تزروا وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون أنه عليم بذات الصدور » . الزمر آية ٧ »

الا ترى انه تعالى اسند الكفر ان كفروا والشكر ان شكروا اليهم وايد ذلك بقوله « بما كنتم تعملون »

ثم بين ان المراد بقدرة علمه الازلى بما سيكونون عليه ويختارونه فقال « إنه عليم بذات الصدور »

وليس في العلم بالشيء اكراه عليه أبدا .

وتأمل قوله تعالى لرسوله مقررا فيه التوحيد وانه تعالى وحده الذى له الخلق والامر ومبينا ان الانسان مجزى بعمله

« قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة انما يوفي الصابرون اجرهم بغير حساب . قل إني أمرت ان اعبد الله مخلصاً له الدين . وأمرت لأن اكون أول المسلمين . قل إني أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل الله اعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه .. قل ان الخاسرين الذين خسروا انفسهم واهليهم يوم القيامة الا ذلك هو الخسران المبين لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون» الزمر آية « ١٠ - ١٦ »

وانظر متأملا قوله تعالى بعدما تقدم

« والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها وانابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب » . الزمر آية « ١٧ - ١٨ »

ثم ان الاحتجاج بالقدر على الكفر والمعاصي والاجرام انما هو من اعمال الكفار المشركين الذين اخبر الله عنهم بذلك فقال

« وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين » . النحل « ٣٥ »

وكذلك اخبرنا عن احتجاج الكفار يوم القيامة عن معاصيهم بالقدر وان ملائكة العذاب لم تجبهم

على احتجاجهم بالقدر الا بالزجر وبامرهم بدخول النار لانهم انكروا نعمة العقل والتمييز التي منحهم الله اياها وخرجوا على الطبع والشرع قال سبحانه «وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين .. قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين» . الزمر آية «٧١-٧٢»

وقال سبحانه «سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون إلا الظن وان انتم إلا تخرصون» . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين» . الأنعام آية «١٤٨»

اى لوشاء سبحانه ان يجعلكم كالملائكة المفطورين على الخير لفعل وحينئذ لا تكونون بشرا مختارين مكلفين لانه تعالى على كل شيء قدير .

واما قولهم ان العبد ليس له فعل ولا عمل وانما الفعال الله فخروج على الواقع والفطرة وفعل الله لا يؤاخذ به العبد كالخلق والرزق وانزال المطر والقحط والموت والبعث ، ثم ان العبد له فعل لا ينسبه الى الله الا كافر اذ ان العبد ينام والله لا تأخذه سنة ولا نوم . والعبد يلد ويولد والله سبحانه «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»

والعبد يحتاج ويفتقر والله سبحانه يقول «يا أيها الناس انتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد» فاطر «١٥»

والعبد يظلم «وما ربك بظلام للعبيد» السجدة «٤٦»

وما ظلمهم الله ولكن كانوا انفسهم يظلمون. وبعض العباد يفسدون في الارض والله اسند ذلك اليهم لاله بقوله سبحانه

«ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو الد الخصام وإذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد» .. البقرة «٢٠٤ - ٢٠٥»

والعبد يقتل النفس التي حرم الله ويزني ويسرق ويلوط ويقطع الطريق و .. فهل يسند ذلك الى الله فيقال سرق الله وقطع الطريق الله . .

وما اقبح تلك الكلمة التي قطعتهم ونفرت الناس منهم لما وقف احدهم في سوق البصرة وقال وقبحه الله من قائل - والله ما زنى بزوجي بعد الله الا فلان - وهل يقبل من قاتل او سارق او معتد لدى المحاكم في شرق العالم وغربه اعتذار بالقدر ؟ اللهم : لا

شبههم المضحكة ودحضها

ليس في القرآن العظيم ولا الاحاديث الصحيحة ما يدل على الجبر قط بل كل ما فيهما من هذا الموضوع اما دال على عموم مشيته تعالى وسلطان قدرته وانه تعالى لا مكره له وانما دال على شمول علمه وكمال احاطته وانه تعالى لا يغرب عن علمه مثقال ذرة في السماء ولا في الارض .

فمن عموم المشيئة قوله سبحانه «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» السجدة «١٣» «ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً» الرعد «٣١» «وما تشاؤون إلا أن يشاء الله» الانسان آية «٣٠» . وهذا لا

خلاف فيه بين المسلمين ولا متمسك فيه للجبرية كما تقدم .

واما الآيات والاحاديث الدالة على عموم العلم فكقوله تعالى «والله بكل شيء عليم» البقرة آية «٢٨٢» .

وقوله(ص) «ما فيكم من احد إلا وقد كتب مقعده من من الجنة ومقعده من النار) وفي الحديث القدسي «هؤلاء الى الجنة ولا ابالي وهؤلاء الى النار ولا أبالي» وهذا الاخير فيه اصلا وكل ما فيه فانما هو اخبار بعموم علمه ومن تمام العلم ان قد علم سبحانه ان اهل النار سيعملون بعمل يؤدي بهم اليها وهم في عملهم مختارون وكذلك اهل الجنة . وهذا اخبار بما سيكون وعلم بما سيقع لا انه عملهم قسر واجبار على ما سيكون وما الكتابة السابقة الا كتابة علمه سبحانه - والذي فهمه المسلمون المؤمنون انه احاط علمه الازلي بما سيفعلون باختيارهم وانما سيؤول اليه امرهم بأعمالهم فالدين بجملته وتفصيله يثبته الله تعالى عن الجبر .

شبهتهم على سبق العلم

الجبر باطل باتفاق ائمة الهدى من أهل السنة والجماعة بل باتفاق عقلاء العالم واهل الملل الاخرى لانه يخالف الشرائع ويصادم العقول ويكابر الحس ثم أنهم متناقضون فهم قدريون ان ظلمهم احد وجبريون ان اعتدوا واساؤا . قال الجبري اليس كل ما في الوجود قد سبق في العلم الالهي فلو فرض المحال وخالف الواقع ما سبق في العلم لانقلب العلم جهلا .

- فالجواب بستحيل ان يخالف الواقع ما سبق في العلم ولكن من تمام العلم الالهي انه علم أن أفعالك اختيارية وانك لست مجبورا على فعلها كما هو الواقع المشاهد

وايضا كما ان افعالك قد سبق بها العلم فكذلك افعاله تعالى قد سبق بها العلم فاذا كنت مجبورا لسبق العلم أفيكون الله سبحانه مجبورا لسبق العلم وهذا كفر صريح .

والله سبحانه حكيم رحيم عادل منزه عن النقائص متصف بكل كمال والظلم من النقائص والعدل من الكمال وتكليف المجبور ظلم ينافي العدل والرحمة والكمال والحكمة سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

وبعد ، فأي فائدة في ارسال الرسل وانزال الكتب ووعظ الواعظين وارشاد الخطباء وتربية المربين ودعوة الداعين الى الدين وهذا هو الذي رده زوج البتول وضهر الرسول علي بن أبي طالب بقوله لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب والوعد والوعيد والامر والنهي وهذا الى الوثنية اقرب منه الى الاسلام .

والجبري يقول : ان الله كلف الكفار والعصاة مالا يسعهم ان يفعلوه والله تعالى يقول «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» البقرة آية «٢٨٦» ويقول «لا يكلف الله نفساً إلا ما أتاها» الطلاق آية «٧»

- وان قال الجبري : اليس الله قد قدر وقضى كل شيء ، فماذا يقى ؟ قلنا : نعم وهذه كتلك قضى وقدر انك غير مجبور وعلم انك ستفعل أفعالك الاختيارية غير مجبور .

نصوص فهموها على غير وجهها

قال هؤلاء هاكم نصوصا تثبت ان الانسان مجبور على افعاله قال تعالى «ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة» النحل «٩٣» . «ولو شاء لجمعهم

على الهدى » الانعام « آية ٣٥ » « ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً » . يونس « ٩٩ »

والجواب انه تعالى متصف بكل كمال منزه عن كل نقص وتمام القدرة من الكمال والعجز نقص فالله سبحانه يقول : ان هؤلاء الذين بلجوا في طغيانهم وركبوا رؤسهم وامعنو في اثمهم لو شاء الله ان يكونوا مقسورين على الهدى مفطورين على الخير لفعل لانه لا يعجزه شيء ولكنه شاء أن يكونوا مختارين لا مجبرين يوقعون اعمالهم عن ارادة واختيار لانهم من البشر القابل للتكليف .

والخطاب هنا للنبى صلى الله عليه وسلم الذى شق عليه كفرهم واعراضهم فبين الله لرسوله انه قادر على جعلهم كالملائكة مفطورين على قبول الخير ولكني لا أكره بشرا لا على خير ولا على شر فاذا كنت انا وانا خالقهم لم اجبرهم على شيء من هذا « افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

يونس « ٩٩ »

وما اجمل جواب اياس بن معاوية قاضي عمر ابن عبد العزيز لواصل بن عطاء حينما اراد ان ينفى قدر الله بقوله : يا اياس بن معاوية قاضي عمر سألتك بالله ايحب الله ان يعصى ؟ فاجابه ذلك الجواب الحكيم الذى كسر قوله وابطل شبهته واثبت قدرة الله وانها هى المراد من الارادة فقال له : سألتك بالله ايعصى الله رغما عنه . فكأنما القمه حجرا وولى واصل فارا واجما .

وهذه الآيات وامثالها صريحة في نفوذ مشيته وانه لا يكون شيء إلا باذنه وانه يفعل ما يريد وان ارادتنا وقوتنا به سبحانه وما بهذا شيء من الجبر لقائل من هؤلاء ان يقول قال الله تعالى « وما تشاؤن إلا أن يشاء الله »

الانسان « ٣٠ »

وهذا هو الجبر بعينه فنقول وهذه الآية كالآيات السابقة الدالة على نفوذ مشيته وعموم ارادته وليس بها إكراه ولا اجبار فتضمن ذلك ان الواقع بمشيته وان ما لم يقع لعدم مشيته . قال شيخ الاسلام ابن تيمية وهذا حقيقة الربوبية وهو معنى كونه تعالى رب العالمين وكونه القيوم القائم بتدبير عباده فلا خلق ولا رزق ولا عطاء ولا منع ولا قبض ولا بسط ولا موت ولا حياة ولا ضلال ولا هدى ولا سعادة ولا شقاوة الا بعد اذنه وكل ذلك بمشيته وتكوينه اذ لا مالك غيره ولا مدبر سواه ولا رب غيره قال تعالى

« وربك يخلق ما يشاء ويختار » القصص « ٦٨ » .

« ونقر في الارحام ما نشاء » الحج (٥)

وقال « في أى صورة ما شاء ركبك »

الانفطار آية (٨) .

« لله ملك السموات والارض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء أناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيماً » .

الشورى « ٤٩ — ٥٠ »

قال الشافعى رحمه الله : المشيئة ارادة الله فاعلم خلقه ان المشيئة له دون سواه وان مشيتهم لا تكون الا ان يشاء الله ولهذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقول له احد ما شاء الله وشئت وقال له : اجعلتنى لله ندا وفي رواية عدلا .

ويؤيد ما ذهبنا اليه من أن معنى المشيئة ان الله لا مكره له قوله صلى الله عليه في حديث الصحيحين عن ابى هزيرة « لايقول احدكم اللهم اغفرلى ان شئت وارحمنى ان شئت وارزقني ان شئت ليعزم مسئلته انه يفعل ما يشاء لا مكره له) .

وقد تعلق بعض هؤلاء بحديث معاذ لاحول ولا قوة الا بالله باب من ابواب الجنة » قالوا واى شيء بقي لنا اذا كنا لا حول ولا قوة لنا . فنقول ما لكم اغلقتم عقولكم وهل قال النبى (ص) لا حول ولا قوة الا بالله او الا بالله فان هذا النص أثبت لنا حولا وقوة ولكنه مستمد من الله وبالله .

ومعنى الحوقله ان يتبرأ العبد من حوله وقوته الى حول الله وقوته ويسأله ان لا يكله لنفسه طرفة عين ولا أقل من ذلك لان العبد اذا تخلى الله عنه طرفة عين هلك . ومن معانيها الاعتراف بالعجز والتقصير والاستسلام الى الله سبحانه وتفويض الامر اليه ولهذه المعانى الجليلة العظيمة كانت بابا من ابواب الجنة .

« قل كل من عند الله »

لقائل من هؤلاء ان يقول قد اجبت عن استشكالاتنا فما انت قائل في هذه الاية الصريحة الناصة على ان الانسان ليس له عمل ولا كسب ولا أختيار وهى قوله تعالى

« وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ». (النساء ٧٧)

فالجواب ان الاستشكال جاء

اولا من عدم معرفة لغة العرب ومدلولات الفاظها ومعانى مفرداتها

وثانيا من عدم التفريق بين اصبت واصابك .

— وثالثا من جهل سبب نزول الآية ولا ريب أن معرفة سبب النزول تزيل كثيرا من اللبس وتوجه الآية الى المعنى المراد وتبين معناها الحقيقى.

ورابعا من عدم معرفة المراد بالحسنة والسيئة هنا

فنقول والمستعان بالله وحده ان هذه الآية نزلت في اليهود ومنافقى المدينة الذين ابطنوا الكفر واظهروا الايمان وذلك انهم لما قدم رسول الله (ص) لمدينة قالوا : ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا مذ قدم علينا هذا الرجل واصحابه (يعنون النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه) فقال الله تعالى مكذبا اياهم ومبطلا مدعاهم « ان تصبهم » أى اليهود والمنافقين « حسنة » اى خصب ورخص في الاسعار « يقولوا هذه من عند الله » لنا « وان تصبهم سيئة » يعنى الجدب والقحط وغلاء الاسعار « يقولوا هذه من عندك » اى من شؤم محمد واصحابه » .

كما انهم اى المنافقون قالوا هذا يوم بدر ويوم أحد أى ان النصر يوم بدر من عند الله والهزيمة والقتل يوم احد من عندك اى أنت الذى حملتنا عليه .

فقال تعالى لرسوله « قل » لهم يا محمد « كل من عند الله » الحسنة والسيئة من عند الله اى الخصب والجدب وغلاء الاسعار ورخصها ثم عيرهم بالجهل فقال « فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » أى لا يفقهون القرآن فيفهموا معانيه .

وليس المراد بالحسنة والسيئة هنا الطاعة والمعصية بل المراد بهما ما يصيبهم من النعم والمحن وهي ليست من فعلنا ولا يقال في الطاعة والمعصية إصابتي وانما يقال اصبتها بدليل انه تعالى لم يذكر عليها ثوابا ولا عقابا فهى كقوله تعالى فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه .

وهكذا قال المنافقون مثل قولهم « اتواصوا به

بل هم قوم طاغون » الذاريات «٥٣» . فالمراد بالحسنة والسيئة هنا النعم والمصائب وليس المراد ما يفعله الانسان باختياره لانها جاءت بلفظ « ان تصبهم » والقرآن العظيم فرق بين ان تصيبكم وان تمسسكم وبين اصبتم وكسبتم وكسبت ايديكم ومن جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة ، والفرق بينهما ظاهر بين .

قال الله في المنافقين

« ان تمسسكم حسنة تسوءهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » آل عمران « ١٢٠ » وقال تعالى

« وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون »

الاعراف « ١٦٧ »

ويفسر المراد قوله سبحانه « وإنا إذا اذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فان الانسان كفور » الشورى « ٤٨ »

ولكن الله سبحانه وتعالى اذا ذكر حسنات الكسب وسيئاته اى الطاعات والمعاصي نسبها الى فاعلها ووعد عليها الثواب والعقاب وحينئذ يذكرها بلفظ اصبتم وكسبتم وجاء بكذا وكسبت ايديكم كما في قوله تعالى « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها »

الانعام « ١٦٠ »

« ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين »

هود « ١١٥ »

وقوله « من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون » . القصص « ٨٤ »

ومما يدل ايضا على أن الآية تتناول النصر يوم بدر والقتل والهزيمة يوم احد ايضا صدر الآية لان الآية نصها

« اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » .

النساء « ٧٨ »

واما آية « ما اصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » فمعناها ان الله انعم عليك نعما كبيرة من غير كسب منك تستحق به ذلك شق لك السمع والبصر وسواك وعدلك وصورك فاحسن صورتك وسهل لك الخروج من بطن أمك « قتل الانسان ما أكفره من أى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره » عبس « ١٧ »

واعطاك ما تعيش به قبل ولادتك وبعدها الاغتذاء بدم امك من حبل سرتك وبما اعطاكم بعد ذلك من ماء وضياء وهواء وغذاء .

فاذا تنكبت السبيل الموصلة لرضوانه نبهك لتعود كما قال سبحانه « وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً »

الاسراء « ٥٩ »

وقال « وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون »

الاعراف « ١٦٧ »

والعقوبة مترتبة على الذنب ترتب الجزاء على فعل الشرط كما في يوم احد لما خالفوا النبى صلى الله عليه وسلم ونزلوا عن الجبل الذى امرهم وهم الرماة ان لا يبرحوه ونزلوا من اجل الغنائم فقال تعالى

« أو لما اصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أني هذا قل هو من عند أنفسكم » . آل عمران « ١٦٥ »

قال ابو عثمان النيسابورى من أمر السنة على

نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة لان الله تعالى يقول « وان تطيعوه تهتدوا » وقال

« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » النور « ٦٣ »

ماهى فوائد اضافة السيئة الى العبد

هذا تركيب تربوى عظيم وتهذيب الهى كبير وفيه فوائد جمة

اولا ان يعلم العبد انه مأخوذ بذنبه ومسئول عن تفريطه لقوله سبحانه

« من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » النساء « ١٢٣ » وقوله « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شر يره » .

وثانيا ان لا يطمئن العبد الى نفسه ويغتر بها ويشتغل بملام الناس وذمهم بل يقبل على نفسه ويهذبها ويسأل الله ان يعينه على تذكيتها بطاعته . وكان النبى (ص) يقول : اللهم انى اعوذ بك من شرور نفسي وسيئات عملي واعظم السيئات جحود الخالق جل وعلا والشرك به .

وثالثا : أنك اذا علمت ان الشر لا يحصل الا من نفسك تبت وانبت واحترست منها لأنها موضع تسويل الشيطان .

ورابعا : لو اقتصر الله سبحانه على نسبة المصاب الى الله فقط ولم يذكر « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » النساء « ٧٩ » لأعرض العاصي عن التوبة وعن ذم نفسه واتهامها والاستعاذة من شرها ولأعرض عن التبرؤ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته وعن طلب معونته تعالى وهناك يقول ما قاله المشركون « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » .

الانعام « ١٤٨ »

وخامسا : ولو لم يذكر « وما أصابك من حسنة فمن الله » النساء « ٧٩ » لغابوا عن التوحيد والايمان بالقدر واللجأ في الهداية الى الله تعالى ولهذا كان انفع الدعاء واعظمه دعاء الفاتحة « اهدنا الصراط المستقيم » وحاجة العبد الى الهداية امس من حاجته الى الطعام والشراب والنفس ولو انقطع عنه طرفة عين لهلك ويدخل فيه اى طلب الهداية من مصالح الدنيا والآخرة مالا يمكن حصره .

وسادسا : ليعلم العبد ان النعم تقع بمحض الفضل وبلا كسب ألم يهبه الحياة ويمنحه العافية وأرسل اليه الرسل وحبب اليه الايمان وزينه في قلبه واذا تدبرت هذا شكرت الله تعالى على ما اولاك فكنت من الشاكرين والشاكر من احباب الله وخواصه .

القدر ليس بمانع من العمل

وعاجز الرأى مضياع لفرصته
اذا تواكل يوما عاتب القدرا

قلنا ان القدر هو علم الله بما يكون عليه العبد والعلم بالشيء ليس به من الاجبار والاكراه شيء .

فان قالوا : اذا كان القدر هو علم الله الازلى بسعادة فلان او بشقائه فأنى يفلت منها واذا هو مربوط بهذا العلم الذى لا يتخلف وهذا سؤال تردد على السنة الشباب في سورية ولبنان والمملكة السعودية والعراق .

والجواب ان مناط التكليف هو امر الله ونهيه لا علمه ، فمقام العلم عام احاط بما كان وما سيكون عليه المخلوقات من طاعة ومعصية وخير وشر وهو صفة كمال لله عز وجل وهو سره المصون

وعلمه المكنون وقلنا ان العلم بالشيء ليس به اكراه ولا اجبار عوض (١) .

واما مقام الامر والنهي فانه هو مناط التكليف ومقام التهذيب والاصلاح وان احدا لا يستطيع ان يثبت ان الله امر بمنكر او فحشاء لأن الاوامر الالهية تضافرت على طلب الخير ، والابتعاد عن الشر ومدار التكليف هو امر الله لا علمه ، وعلمه سره واختصاصه الذي لم يطلع عليه أحد وليس لاحد ان يحتج به في مخالفة امر ربه ومن الذي يدعي ان الله اطلعه على سره واعلمه علمه قبل ان يخالف امره حتى استباح المحرمات واقترف المحظورات . وهذا هو عين ما كان عليه كفار العرب وغيرهم من عبدة الاوثان وجنود الشيطان كما اخبرنا الله تعالى عنهم ،في كتابه اذ قال

« سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا اباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم» الانعام « ١٤٨ » وبقوله « وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين » . النحل « ٣٥ »

وكذلك زعموا ان الله أمرهم بالفاحشة كما اخبر عنهم سبحانه بقوله « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا آباءنا والله أمرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء اتقولون على الله ما لا تعلمون » . الاعراف « ٢٨ »

والجبريون هؤلاء ليسوا بمسلمين وان زعموا انهم مسلمون وهم وامثالهم لا جزاهم الله خيرا قد اعطوا لهذا الملحد المدعو بابراهيم خلاص المرشح في الجيش السوري املوا عليه بسوء اعتقادهم ما طعن به على الاديان السماوية عموما وعلى الاسلام خصوصا اذ جعل مدار بحثه ان القدر جبر فكتب في مجلة الجيش والشعب ما انكر به الخالق والملائكة والنبوة وأخذ يهرف بما لا يعرف والانكار سهل لا يكلف صاحبه اكثر من كلمة «لا» وما اسهلها على الكافر ولكن الشأن كل الشأن ان يقيم على زعمه ولو شبه دليل

« قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » .

لا يخدعنك عن دين الذي نفر
لم يرزقوا في التماس الحق تأييداً
عمى القلوب عموا عن كل فائدة
لانهم كفروا بالله تقليداً

ونعود للكلام على أن عقيدة القدر لا تمنع من العمل بدليل ان المسلمين لما اعتقدوا بالقدر كما جاء به الاسلام فتحوا الدنيا برها وبحرها وشرقها وغربها وفجروا القرآن ينابيع وعيونا وفنونا وعلوما ، وهاك ايضا هذه النصوص من كتاب الله وسنة رسوله .

قال سبحانه « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » التوبة « ١٠٥ »
وقال « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » الحج « ٧٧ »
« واطيعوا الله و الرسول لعلكم ترحمون ال عمران « ١٣٢ »
« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر

(١) عوض مثلثة الاخر مبنية وهي ظرف لاستغراق المستقبل فقط تقول لا افعل هذا الشيء عوض اي ابدا وقد تستعمل للماضي في لغة رديئة فهي ضد قط الذي معناه الزمان الماضي يقال ما رايته قط ولا يجوز دخولها على المستقبل فلا يجوز ان تقول : لا اقابله قط .

لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » آل عمران « ٣١ »

والسيئة قدر ودفعها بالحسنة من القدر قال الله تعالى « ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون » المؤمنون « ٩٦ »

وفي السنة المطهرة ايضاح وتفصيل لهذا الاجمال فان الصحابة لما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها وتقى نتقي بها هل ترد من قدر الله شيئا فقال صلى الله عليه وسلم : هي من قدر الله .

ولما قال بعض الصحابة في موضع آخر فيم العمل يا رسول الله قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وكذلك لما قصد عمر بن الخطاب الشام وهو من اخص تلاميذ رسول الله (ص) وبلغ معان قيل له ان بالشام طاعونا وهو طاعون عمواس — توقف وسأل الناس من عنده علم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الامر فجاء عبد الرحمن بن عوف من آخر الجيش وهو احد العشرة المبشرين بالجنة فقال : انا عندي علم بهذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا سمعتم بهذا الوباء في بلد فلا تدخلوها واذا كنتم فيها فلا تخرجوا منها (١) فأمر عمر الناس بالرجوع . فقال له ابو عبيدة عامر بن الجراح : انفر من قضاء الله يا أمير المؤمنين فقال له عمر : لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة نعم نفر من قضاء الله الى قضاء الله . ثم ارتحل راجعا الى المدينة المنورة .

ثم أننا في كل يوم ندفع القضاء بالقضاء ونرد القدر بالقدر اننا نجوع ونعطش بقضاء الله وقدره ونرد ذلك بالاكل والشرب وهما من قضاء الله وقدره كما اننا نرد اذى العدو وهو قدر بالاحتراس منه وهو قدر ، كما نرد سطو السارق وهو قدر بالقفل وهو قدر وبعدك عن اهلك قدر ورجوعك اليهم قدر .

ولا ريب ان مجيء الكفار يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين قدر وردهم ودفاعهم قدر ثم انه عليه الصلاة والسلام قال :

« لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر »

اخرجه الترمذي والحاكم وعلم عليه الجامع الصغير بالصحة عن سلمان الفارسي .

شبهتان سخيفتان ودحضهما

الاولى قال بعض الجبرية وهو متصوف لا صوفي ما فائدة هذه الآيات التي توهم الجبر اذا مثل قوله تعالى: « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » وقوله

« ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله »

الكهف « ٢٣ »

وجوابها من وجوه الاول ان من تمام الدين ان تكون فيه هذه الآيات لانها دالة على تمام ملكه وكمال ربوبيته فلا منازع ولا مشارك له في ملكه بل بيده مقاليد كل شيء يفعل ما يشاء ويتصرف كما يريد ، واعتقاد هذا من تمام الايمان ورسوخه .

والثاني توهم أناس من المجوس وغيرهم ان هناك اثنين احدهما خلق الخير والآخر خلق الشر وظنوا انهم بسوء فهمهم نزهوا الله فهذه الآيات علاج لهذا الضلال .

والثالث : ان من الناس من بلغ به الغرور ان يزعم انه يعاند القدر ويفعل ما يشاء بل ينكر القدر على انه لا يستطيع ان يحول دون مرضه ولا نومه ولا موته فهذه الآيات علاج لهذا وامثاله .

والاسلام صيدلية كاملة فيها كل شيء فاذا

(١) وهذا احدث ما تواضع عليه حكومات العالم المتمدن في قوانين الحجر الصحي .

جاء القدرى تلونا عليه هذه الآيات فيرجع الى الصواب .

واذا جاء المجبرى تلونا عليه قوله تعـــالى « ويتجنبها الاشقى الذى يصلى النار الكبرى » الاعلى « ١٢ »

وقوله « إدخلوا الجنة بما كنتم تعملون » النحل « ٣٢ » وقوله « وما ظلمهم الله ولكن كانوا انفسهم يظلمون » النحل « ٣٣ »

ليرجع عن غيه فالايات التي تنسب الاعمال الى الله علاج القدرى ، والآيات التي تنسب الاعمال الى العباد علاج للمجبرى .

والشبهة الثانية : ان غير واحد من هؤلاء المساكين قالوا لماذا وفق الله بعض خلقه دون البعض ولماذا لم يوفق الجميع وكلهم عباده فقلت لهم :

« خلق الله الانسان مستعدا لقبول الخير والشر وان فعل للخير ينمى في الانسان الخير ويوجهه للخير ويعده لقبوله ، وان فعل العبد للشر ينمى فيه الشر ويوجهه اليه ويجعله من أهله (. وهذا مشاهد معروف لدى كل الناس من أهل الحكمة والنظر . قال سبحانه

« والذين جـــاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » العنكبوت « ٦٩ » وقال « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطا مستقيماً » النساء « ٦٥ — ٦٨ » « والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل اعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم » محمد « ٦ »

واما الذين اتجهوا للشر ومرنوا عليه فقد قال فيهم أيضا « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » الروم « ١٠ »

وقال « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى » فصلت « ٤٤ »

وفي حديث ابن مسعود المتفق على صحته عند صلى الله عليه وسلم انه قال « عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر وان البر يهدى الى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا . واياكم والكذب فان الكذب يهدى الى الفجور وان الفجور يهدى الى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا فشاءت حكمته تعالى ان اعان المحسن الذى حسنت نيته وصلح عمله وخلى بين المسيء وبين نفســه وتلك سنته في خلقه .

وأيضا فانه لو جاء التوفيق للجميع على السواء كما يريد هؤلاء السائلون وفي الناس المحسن والمسيء لكان موهما خلاف العدل والحكمة واما العدل والحكمة فبأن يكون التوفيق على نسبة الاستعداد للخير ان الله لا يضيع مثقال ذرة « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »

ويرحم الله الحارث المحاسبي اذ قال : ابن آدم جوهرك عقلك وجوهر عقلك توفيق الله فسل الله التوفيق .

فاللهم وفقنا لاتباع سبيلك والاستمساك بدينك والاعتصام بكتابك

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب » .

والحمد لله في البدء والختام وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اخوانه الانبياء الكرام واصحابــه الاعلام .